﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرّعد: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تفصيل المُجملات تناسبٌ تدرُّجيٌّ وانتقالٌ فريد

لَمّا ذكرتِ الآية السّابقةُ مدَّ الأرضِ وما فيها من آياتٍ دالَّةٍ على عظيمِ صُنعه سبحانه؛ شرع تعالى في شيء من تفصيل ما في الأرض من الآيات الّتي هي أكثرُ تفصيلًا، فقال: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، فبَيَّن أنَّ في الأرض علامات كثيرة، ودلائل كثيرة لوحدانيَّته، لمَن له عقل سليم[2]، فالانتقال من الآية السّابقة إلى هذه الآيةِ هو بيانُ نتاج الأرض الّتي جعل الله فيها رواسي وأنهارًا، وهو قوتُ الإنسانِ وغذاؤه، بعد بيان ذلك إجمالًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قِطَعٞ﴾: القَطْعُ: إبانة بعض أجزاء الشَّيء من بعض فَصْلًا[3]، يُقال: قطَعَ الشَّيءَ يقْطعُه قَطْعًا ومَقْطَعًا، وأصْلُ القَطْعِ: فَصْلُ بعض الجِرْمِ المُمتدِّ المُلْتَحِمِ عَنْ بعضه، ومَقْطَعُ كلِّ شيء ومُنْقَطَعُه: آخره حيث ينقطع؛ كمقاطع الرِّمال والأودية والحَرَّة وما أشبهها[4]، والقِطعةُ: طائفةٌ من كلِّ شيء، والجمع: القِطَعات والقِطَعُ[5]، والمعنى هُنا: بقاعٌ مُتقاربات مُختلفة الطَّبائع[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/124.
(2) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/216.
(3) ابن سيدَه، المُحكَم والمُحيط، والرّاغب، المُفردات: (قطع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (قطع).
(5) الخليل، العين: (قطع).
(6) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/258.

2) ﴿صِنْوَانٌ﴾: مُجتمِع، يدلُّ على تقارب بين شيئَيْن، قرابة أو مسافة، من ذلك الصّنو: الشّقيق، وعمُّ الرّجل: صِنو أبيه، يُقال: فلان صنو فلان؛ إذا كان أخاه وشقيقه لأمّه وأبيه[1]، والصّنو: النّظير والمثيل، والأصل في ذلك النّخلتان أو النّخلات يجمعها أصلٌ واحِد، وتتشعب[2]، فكلُّ واحدةٍ منهما على حيالها صِنو، والجمع: صنوان[3]، والمعنى هنا: الأصول المجتمعة في منبت واحد كالرّمان والتّين والنّخل وغيره[4].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تُبيِّن الآيةُ أنَّ في الأرض بقاعًا مُتقاربةً يُجاور بعضُها بعضًا، وجعل فيها زُروعًا مُختلفةً ونخيلًا مجتمعًا في منبتٍ واحد، وغير مجتمع فيه، تُسْقَى هذه البساتين وتلك الزُّروع بماءٍ واحد، وبعضها أفضلُ من بعض في الطَّعم وغيره من الفوائد على رغم تجاورها وسقيها بماءٍ واحد، إنَّ في ذلك المذكور لدلائل واضحة على قُدرة اللّه لمَن له عقل يُفَكِّرُ به[5].

اتِّـحـادُ الأصـلِ ليس شرطًا في اتِّفاقِ الفرعِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

معنى الواو ودلالة استعمالِها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ يصحُّ حملُها على الاستئنافِ أو العطفِ؛ فمعناها على الاستئنافِ: هو في كون الأرض مُشتمِلةً على طائفة أخرى ونوع آخر من الآيات؛ أيْ: في الأرض بقاعٌ كثيرة مختلفة في الأوصاف، فمن طيبة مُنبتة، ومن

الانـتـقـال إلى طائفة من النِّعم الدّالَّة على قُدرة الله تعالى فيما ألْهَمَ النّاس من العمل

(1) الخليل، العين: (صنو).
(2) ابن فارس، جمهرة اللّغة: (صنو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنو).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/370.
(5) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآن الكريم، ص: 352، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 249، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 249.

سبخة لا تُنبت، ومن رَخوة، ومن صلبة، ومن صالحة للزَّرع لا للشَّجر، ومن صالحة للشَّجر لا للزَّرع إلى غير ذلك[1].

ومعناها على العطفِ: هو الانتقال إلى ذِكْر النِّعم الدّالّة على قدرة الله تعالى فيما أَلْهَمَ النّاس من العمل في الأرض بفلحها وزرعها وغرسها والقيام عليها، فجاء ذلك معطوفًا على الأشياء الّتي أُسند جعلها إلى الله تعالى[2].

معنى التَّعريفِ:

معنى ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الّتي أنتم سُكّانها، تُشاهدون ما فيها مُشاهدة لا تقبل الشَّك[3]، فاللّام للمعهود ذِكْرُها آنفًا.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

تجديد الأسلوب بإظهار الاسم دون الإضمار

أُعيد اسم ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ الظّاهر دون ضميرها الّذي هو المقتضَى؛ ليستقلَّ الكلام، ويتجدَّد الأسلوب فيزداد حلاوة وبلاغة، وأصلُ انتظامِ الكلام أنْ يُقال: (جعل فيها زوجيْن اثنيْن، وفيها قطع مُتجاورات)، فَعَدَلَ إلى هذا توضيحًا وإيجازًا[4].

سرُّ التَّعبير بالقطع:

الإيماء إلى أنَّ هذه الأراضي قُطعت بتدبير وإرادة عليَّة

في التَّعبير بالقِطَعِ في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ اختصاص كلٍّ من تلك القطع بما لها من الأحوال والصِّفات، بمحض خلق الخالق الحكيم جلَّت قُدرته حين مَدَّ الأرض ودحاها،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/5، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/97، والقنّوجيّ، فتح البيان: 3/479.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/85 - 86.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/278.

(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/442.

والإيماءُ إلى كونِ تلك الأحوال صفاتٍ راسخةً لتلك القِطَعِ[1]، وكُلُّ ما كان هذا شأنه؛ فلا يختلف، ولا يتفاوت بذاته ولا بلازمه، فلا بُدَّ من مُخَصِّصٍ قادر[2] لا إله إلّا هو، ولا ربَّ سواه.

فنكتةُ التَّعبير بالقطعِ هو بيانُ أنَّ الله ﷻ أرادها قطعًا مفصولًا بعضها عن بعضٍ بنوعِ اختصاصٍ فيها، من وضع خصائص للتُّربة تختلف كلُّ قطعةٍ عن غيرِها، وهو سرُّ التَّباين في نتاجها من الثّمرات المَسقيَّة بماءٍ واحد؛ فلم تأتِ هذه القطع اعتباطًا، وإنَّما بإرادةٍ مقصودةٍ، وفي هذا ردٌّ صريحٌ على معتقد الملاحدة في كون الأرض جاءت بتطوُّرٍ غير مقصود.

سِرُّ الوصف بمتجاورات:

وُصِفت القطع بـ ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾، وهذا الوصفُ مقصودٌ بالذّات في هذا المقام؛ إذ هو محل العبرة بالآيات، فإنَّ من عجيبِ صنعِ الله تعالى في جعل القطع متجاورات اختلاف النتائج البيِّنات، في تفضيل بعض الثّمار على بعضها الآخر في القِطَعِ المجاورة في الأُكُل، فإنَّ مقتضى تجاور القطع تجاور الطُّعوم، لكن أن تتجاور القطع، وتتباعد الطُّعوم، فهذا هو موطن العِبرة؛ ولذلك جاء الوصف كاشفًا عن سرِّ هذه القطع المتجاورة المتآخية، فهي مع تجاورها وتقاربها مختلفةٌ في أوصافها، فتختلف وجوهًا، وتتباين صورًا وأشكالًا، فبعضها جديب، وبعضها خصيب، وقِطَعٌ منها مياه، وقطع أخرى يابسة، وجوانب منها عشب وزروع، وجوانب أخرى حدائق وبساتين[3]، مما يشهد بقدرة الله تعالى العظيمة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر: 27][4].

تجاورُ القِطَعِ مع تباعد الطُّعومِ من عجيبِ القدرةِ وعظيم الحكمة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/5.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/453.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/68، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/86.
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/442.

كما أنَّها دالَّةٌ على استقلالِ كلِّ قطعة بخصائص غير موجودة في الأخرى، مع الحفاظ على حقِّ التّجاور في عدم الالتصاق وعدم الانفصال، بما يؤدّي إلى الفصل المُفضي إلى الفساد، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ تجاور الجمادات خير من تجاور كثيرٍ من النّاس.

غرض التّنكير:

الاستقصاءُ لجميعِ أصنافِ المزروعاتِ مقصدٌ مُراد

جاء ذكر الجنّات نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾، وذلك للتَّنويعِ والعمومِ، فيدخل في هذا اللَّفظِ عمومُ الجنّات، ما أُشيرَ إلى ما فيه في الآية من الأعناب والزّرع والنّخيل وغير ذلك، وهذا العمومُ مقصودٌ؛ لأنَّ الآية تُريدُ الاستقصاءَ بإجمالٍ دون ذِكْر جميع التَّفاصيل الّتي هي في الواقع الّذي يعيشه النّاس، فجيءَ بالتَّنوين للتَّعبيرِ عن هذا العمومِ، مع ذِكرِ تمثيلٍ له.

مُناسبةُ العطفِ بين الجمل:

الانتقالُ من وصف الأرض إلى وصف ما تُثمرُه

قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾، وهو انتقالٌ من وصف الأرض إلى ما تُثمره، وما تأتي به من خير[1]، من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ، وتفصيلًا لأنواع الخارج منها ممّا تَتمُّ به المِنَّة، وتعظم به النِّعمة.

مناسبةُ التَّرتيب في ذكرِ الجنّات:

مراعاةُ مقامِ التَّفاضلِ والاختلافِ والتَّباين

ابتدأ النَّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ بذكر جنّات الأعناب؛ لأنَّها كانت أحبَّ الثِّمار إلى العرب، يتَّخذون منها سَكَرًا ورزقًا حسنًا، ولأنَّها سهلة ليِّنة، ولأنَّها أطيب ما تُخرجه الأرض العربيَّة[2]، ثمَّ ثنَّى بذِكر الزَّرعِ، وتقديم ذِكر الأعناب على الزَّرع مع كونه عمود المعاش أيضًا لظهور حالها في اختلافها ومباينتها لسائرها ورسوخ ذلك فيها[3].

(1) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3896.
(2) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3896.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/5.

وتوسيطُ الزَّرع بين الأعناب والنَّخيل؛ لأنَّها كثيرًا ما تكون كذلك في الوجود، كقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢﴾ [الكهف: 32][1].

وتأخير قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ﴾ لئلّا يقع بينها وبين صفتها، وهي قوله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾، وكذلك لمّا كان تفاوت ما أصله الحَبُّ أعجبَ، قال: ﴿وَزَرْعٌ﴾، ولمّا كان ما جَمَعَهُ أصلٌ واحد ظاهرٌ أغربَ؛ أخَّرَ قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ﴾[2].

توجيه القراءات القرآنيَّة في ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾:

رعـايـة حَـقِّ الإيجاز على كلتا القِراءتيْن

قرأ الجمهور: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ بالجَرِّ عطفًا على أعناب، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب بالرَّفع عطفًا على ﴿وَجَنَّتٌ﴾[3]، والمعنى في القراءات واحد؛ لأنَّ الزَّرع الّذي في الجنّات مساوٍ للّذي في غيرها، فاكتُفي به قضاءً لحقِّ الإيجاز، وكذلك على قراءة الرَّفع هو يُغني عن ذِكر الزَّرع الّذي في الجنّات، والنَّخل لا يكون إلّا في جنات[4].

فائدةُ ذِكرِ نوعَي النَّخيلِ:

اختلافُ أشكالِ النَّخيلِ متناسبٌ مـع اخـتـلافِ القِطعِ

ونَصَّ على الصِّنوان في قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾؛ لأنَّها بمنزلة التَّجاور في القِطَعِ الّذي تظهر فيها غرابة اختلاف الأُكُل[5]، فذكر اختلافَ النَّخيلِ، كما أنَّه ذكر قبل ذلك اختلافَ القطعِ، فأومأ النَّصُّ إلى أنَّ الاختلافَ كائنٌ في القطعِ، وفي النَّخيلِ، وفي غيرِهما ممّا لم يذكره النَّصُّ، وأنَّ التّباين بين مخلوقاتِ اللّه تعالى يحتاج إلى تدبُّرٍ وتأمُّلٍ وتفكُّرٍ يقودُ إلى معرفةِ أنَّ هذا الاختلاف هو سُنَّةٌ كونيَّة، وأنَّه كذلك سُنَّةٌ اجتماعيَّةٌ.

(1) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/138.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/278.
(3) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/297.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/87.
(5) الثَّعالبيّ، الجواهر الحِسان: 3/359.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ ﴿صِنْوَانٍ﴾:

العاقلُ هو الّذي يتعاملُ مع النّاسِ بحسبِ حكمتِه لا بحسب واقعهم

جاء التَّعبيرُ بالصّنوان وغير الصّنوان في قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾، والصِّنْوُ: النَّخلة المُجتمعة مع نخلة أخرى نابتتيْن في أصل واحد أو نخلات، الواحد: صنوٌ، والمُثنّى: صنوانِ دون تنوين، والجمع: صنوانٍ بالتَّنوين جمعُ تكسير، وهذه الزِّنة نادرة في صيغ الجموع في العربيَّة، وخصَّ النَّخل بذِكر صفة صنوان؛ لأنَّ العِبرة بها أقوى، ووجه زيادة ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ تجديد العِبرة باختلاف الأحوال[1].

ونكتة التَّعبير بهذا اللّفظِ دون غيرِه؛ للتَّنبيه على ما فيه من غرابةٍ، فالنَّخيل أقسامٌ، فمنه ما يكون له أكثر من رأسٍ، ومنه ما لا يكون إلّا برأسٍ واحدٍ، وهذا كحال النّاس، فمن النّاس مَن يكون له أكثر من وجه، ومنهم مَن لا ترى له إلّا وجهًا واحدًا، وعلى المُسلم أن يُحسن التَّعامل مع النّاس وإن انشطرت لهم رؤوس كثيرة، كما يتعامل مع هذا النَّخل، يأخذ خيرَه، ولا يكترث بشرِّه.

توجيه القراءات القرآنيَّة في: ﴿يُسْقَىٰ﴾:

التَّذكير والتَّأنيث بِحَسَبِ تأويل ما قبلها

قرأ الجمهور: ﴿تُسْقَىٰ﴾ بالتّاءِ على التَّأنيثِ اعتبارًا بجمع ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾، وقرأه ابن عامر، وعاصم، ويعقوب: ﴿يُسْقَىٰ﴾ بالياء على التَّذكيرِ على تأويل المذكور[2].

دلالةُ وصفِ الماء بالواحد:

الإشارة إلى عدمِ تأثيرِ الماءِ في اختلافِ الطُّعومِ والألوان

المياه أنواع وبدرجات مُتفاوتة، لكنَّه في قوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ وصفَ الماء بالواحد؛ وذلك لبيان أنَّ الماء لا يُؤَثِّر على المُنتج من الأرض؛ إذْ يبقى النِّتاج مختلفًا، ولو اتَّحدَ الماء، فليس المقصود بذِكر الماء الواحد أنَّ الأراضي في الأرض كلِّها تُسقى بنوعٍ واحد من

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/87.
(2) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/297، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/88.

المياه، بل المُراد بيان أنَّ هذه الأراضي المُتجاورة الّتي تتفاضل ثمارُها في الأُكُل تُسقى بماءٍ واحد من هذه الأنواع، ومع ذلك تتفاضلُ فيما بينها، بل يقع التّفاضل بينها حتّى في الجنس الواحد، إشارةً إلى عجيب صُنع الله فيها، فالسَّبب المُقتضي لاختلافها ليس إلّا قدرة الصّانع الحكيم جلَّ سلطانه وتعالى شأنه؛ لأنَّ تأثير الاختلاف فيما يخرج منها، ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلّا للسَّببيْن، إمّا اختلاف المكان الّذي هو المَنْبت، أو اختلاف الماء الّذي تُسقى به، فإذا كان المكان مُتجاورًا وقطع الأرض مُتلاصقة والماء الّذي تُسقى به واحدًا؛ لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلّا تلك القُدرة الباهرة والصُّنع العجيب[1]؛ لأنَّه لو كان ظهور الثِّمار بالماء والتُّراب؛ لوجب في القياس ألّا تختلف الألوان والطُّعوم، ولا يقع التَّفاضل في الجنس الواحد؛ إذا نبت في مغرسٍ واحد، وسُقيَ بماء واحد، ولكنَّه صُنْعُ اللَّطيف الخبير[2].

بلاغة الكناية بذِكر التّفضيل ﴿وَنُفَضِّلُ﴾:

التَّفضيل مِنَّة بالأفضل واعتبارٌ بِضِدِّه

قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كنايةٌ عن الاختلافِ في الطُّعوم، فهو كنايةٌ عن صفة؛ أيْ: إنَّ الأشجار قد تكون مُتماثلة وغير متماثلة مع اتحاد التُّربة والزَّرع يُسقى ذلك كلُّه بماء واحد، ونُفَضِّل بعضها على بعض في الأُكُل، أليس في هذا دليل على بديع صنعه وعظيم قُدرَته؟ فإنَّ القِطَعَ المُتجاورة فيها الجنّات متلاصقة، بل الأشجار المُتشابكة المتداخلة، تُسقى بماء واحد وبنظام واحد، وبذرُها واحد، ثُمَّ نرى في بعضها نضجًا وكمالًا وطعمًا وحلاوة، وفي البعض جفافًا ونقصًا، وصغرًا وحموضة، بل وطعمًا مُتَغيِّرًا تمامَ التَّغيُّر عن زميلتها، أليس هذا دليلًا على وجود القادر المختار

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/17.
(2) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/216.

الواحد القهار، وأنَّ الدُّنيا لم تَسِر بطبعها من غير مُدَبِّرٍ لها حكيم[1]، فالتَّفضيل مِنَّة بالأفضل وعِبرة به وبضدِّه، وكناية عن الاختلاف[2].

نكتةُ الإشارةِ إلى ما ورد في قصَّة يوسف عليه السلام:

البشرُ كالقطع المتجاورات

وفي الآيةِ إشارةٌ إلى اختلافِ النّاس بعضِهم عن بعضٍ، فإنَّ الأشقاء من بطنٍ واحدٍ وأبٍ واحدٍ، وهم يتفاوتون بتقواهم وعلمهم وعقلهم وأخلاقهم وأشكالهم، وفيه إشارةٌ إلى ما جاء في سورة يوسف عليه السلام، من التّباين بينه وبين إخوته، وأنَّ هذه سُنَّة كونيّة، وعلى الإنسانِ التَّسليم، وأن يدعو الله ﷻ أن يجعله من المُفضَّلين لا من المفضَّل عليهم.

توجيه القراءات القرآنيَّة في: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾:

قراءة الجمهورِ قائمةٌ على الالتفات بخلافِ قراءة البقيّة

قرأ الجمهور: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ بنون العَظَمَةِ؛ أيْ: بما لنا من العظمة المُقتضية للطّاعة[3]، وقرأها حمزة، والكسائيّ، وخلف: (ويُفَضِّل) بالياء، والضَّمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾[4]، فعلى قراءة الجمهور ففي الآيةِ التفاتٌ من الغيبةِ إلى التَّكلُّم، وعلى قراءة البقيَّة فلا التفات فيها.

نكتةُ إسنادِ التَّفضيلِ إلى الله دون سائر المُتقدِّم:

التَّفضيل هو منتهى العِبرة وبالغ المِنَّةِ وفيه يكمُنُ الاعتبار

لم يتقدَّم في الآية ذكرُ إسناد اختلاف القطع المتجاورات، وسقيها بماءٍ واحد إلى الفاعل، لكنَّ النَّظم في قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ أسند التَّفضيل إلى الله تعالى؛ وذلك أنَّها بأسرارٍ أودعها الله تعالى فيها هي موجِب تفاضلها، وأمثال هذه العِبَرِ، ولفت النَّظر مِمّا انفرد به القرآن من بين سائر الكُتُبِ[5]،

(1) محمَّد حجازيّ، التَّفسير الواضح: 2/214.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/88.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/280.
(4) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/297، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/88.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/85 - 86.

فإنَّ التَّفضيلَ هو منتهى العبرة، وبالغ المنَّة فيما سبق ذِكْره، وعلى العاقل أن يتحرَّى معرفته، ويبلغ مُراده.

سرُّ اختيارِ (بعض) بدلًا من (جنّات):

دفـعُ تـوهُّـم أنَّ التَّفضيل للجنَّة بعمومِها الكلّيّ

آثر النَّظم في قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ أن يذكر ﴿بَعۡضَهَا﴾؛ إشارةً إلى الجنّات؛ أيْ: ونُفضّل جناتٍ على جناتٍ في الأُكُل، لكنَّه لم يُصرِّح بالجنّات، بل أضمرها، وأضاف لفظَ (بعض) إلى ضميرِها، وذلك أنَّ المقصودَ هو تفضيل بعضٍ على بعض، لا خصوص جنّات على جنّات، وهذا التَّفضيل متفاوت المراتب والأزمنة، فقد تكون بعض الثّمار في جنَّة أفضل من ثمارِ أخرى في جنّة أخرى، والعكس صحيح، ولو قال: (جنّات)؛ لظُنَّ أنَّ التّفضيل للجنَّة بعمومِها على أخرى بعمومِها، وهذا غير مُراد، بل المُراد تفضيل بعض الجنّات على بعضٍ آخر، ففيه دفْعُ توهُّم هذا المعنى.

سِرُّ تخصيصِ التَّفضيل في المأكول ودلالة الظَّرفيَّة:

أغـلـب وجـوه الانـتـفـاع بالثَّمرات يَظْهَرُ في النَّتيجةِ وهي الأكل

خصَّ النَّظم الكريم ذِكرَ التَّفضيل ﴿فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ مع وقوع التَّفاضلِ في غيره؛ وذلك لأنَّه غالب وجوه الانتفاع من الثَّمرات[1]، وهو مُنَبِّهٌ على اختلاف غيره من اللّيف والسَّعف واللَّون للمأكول، والطَّعم والطَّبع والشَّكل والرّائحة والمنفعة وغيرها، مع أن نسبة الطَّبائع والاتصالات الفلكيَّة إلى جميع الثّمار على حدٍّ سواءٍ لا سيَّما إذا رأيت العنقودَ الواحد، جميعُ حَبّاته حلوةٌ نضيجة كبيرة إلّا واحدة، فإنَّها حامضة صغيرة يابسة[2]، فظَرفيَّةُ التَّفضيل ﴿فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ ظرفيَّة في معنى المُلابسة؛ لأنَّ التَّفاضل يَظْهَرُ بالمأكول[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/348.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/280.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/88.

دلالة دخولِ حرفِ الظَّرفيّة على اسم الإشارة:

جَـعْـلُ جميع المذكور بمنزلة الظَّرف للآيات

أشار في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى جميع المذكور من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾، وقد جعل جميع المذكور بمنزلة الظَّرف للآيات، وجعلت دلالته على انفراده تعالى بالإلهيّة دلالات كثيرة؛ إذ في كل شيء منها آية تدلُّ على ذلك[1].

وإن كانت بالنَّظر إلى الماء مُفردةً في دلالات واضحات على أنَّ ذلك كُلَّه فعل واحد مختار عليم قادر على ما يُريد من ابتداء الخلق، ثُمَّ تنويعه بعد إبداعه، فهو قادر على إعادته بطريق الأولى[2].

سرُّ ذكر لفظِ (قوم):

التَّنبيه على أنَّ صفة التَّفكُّر جارية على ذوي القيام والاجتهاد من النّاس

ذكرَ لفظ (قوم) في قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ﴾، مع إمكان أن يُقال: (للعاقلين)، ومعنى قوم: ذوي قوَّة على ما يحاولونه[3]، وفيه تنبيه على أنَّ صفة العقل جارية على ذوي القيام والاجتهاد من النّاس، فالّذين يعقلون حياتَهم، ويربطونها بنواميس كونيَّة لا تتخلَّف هم الّذين يقومون فيها أحسن قيامٍ، بما يحبُّ الله تعالى، ويرضى.

توجيه تشابه فواصل الآيات بذِكرِ التَّعقُّل بَعْدَ التَّفكُّر:

التَّفكُّرُ طريق العقلِ وسببُه وهو أداةُ الرَّبطِ والفهمِ

نبَّه الله تعالى في هذه الآية على قُدرته وحكمته، وأنَّه المُدَبِّرُ للأشياء كُلِّها، وذلك أنَّ الشَّجرة تَخْرُج أغصانها وثمراتها في وقت معلوم لا تتأخَّر عنه ولا تَتَقدَّم، ثُمَّ يتصعَّد الماء في ذلك الوقت علوًّا، فيتفرَّق ذلك الماء في الورق والأغصان والثَّمر كُلٌّ بقسطه وبقدر ما فيه صلاحه، ثُمَّ تختلف طعوم الثِّمار والماء واحد، والشَّجر جنس واحد، وكلُّ ذلك دليل على مُدَبِّر دبَّره وأحكمه، لا يُشبه المخلوقات[4].

وفي كلِّ هذا ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أيْ: يعلمون على قضية

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/88.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/280.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/281.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/348.

العقل وما يوجِبُه غير مُهملين لما يقتضيه من التَّفكُّر في المخلوقات والاعتبار في العِبَرِ الموجودات، ويستعملون عقولهم بالتَّفكُّر فيها، وخُصَّ هذا بالعقل، والأوَّل بالتّفكُّر؛ لأنَّ الاستدلال باختلاف النَّهار أسهل، ولأنَّ التَّفكُّر في الشّيْء سَببٌ لتعقُّله، والسَّبب مُقَدَّمٌ على المُسَبَّب، فناسب تقديم التَّفكّر على التَّعقُّل[1]، فالتَّفكُّر في الرُّتبة الأولى، ثُمَّ ختم هذه بالعقل؛ لأنَّه إذا تفكَّر؛ استثمر ما تفكَّر فيه[2].

بلاغةُ التَّعريض بِذِكْرِ التَّعقُّل:

العقلُ أصلٌ في الانتفاعِ الموصلِ إلى الحقِّ في السُّننِ الكونيَّة

من أسرار التَّذييل بِذِكْرِ العقل ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ التّعريضُ بمَن لم يعقل هذه الآيات والبراهين الواضحة الجليَّة، فوُصِفَتِ الآياتُ بأنَّها من اختصاص الّذين يعقلون، تعريضًا بأنَّ مَن لم تقنعهم تلك الآيات مُنزَّلون منزلةَ مَن لا يعقل، وزيد في الدّلالة على أنَّ العقل سجيَّةٌ للّذين انتفعوا بتلك الآيات بإجراء وصف العقل على كلمة ﴿لِّقَوْمٍ﴾، إيماءً إلى أنَّ العقل من مُقوِّمات قَوْميَّتهم[3].

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/479.
(2) الرَّسعنيّ، رموز الكنوز: 3/439.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/88.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»